

الفصل الأول

العرض الجغرافى لبلاد ما وراء النهر

المبحث الأول: العرض الجغرافى التفصيلى لبلاد ما وراء النهر:

- تمهيد.

- مفهوم بلاد ما وراء النهر.

(١) إقليم الصغد

أ- بُخَارَى.

ب- سمرقند.

د- نَسَفَ (نَخْشَبَ).

ج- كِشَ.

(٢) إقليم خُوارِزْمَ

أ- كَاثَ.

ج- هَزَارَ أَسْبَ

(٣) إقليم طَخَارِسْتَانَ

أ- بَذْخَشَانَ.

ج- التَرْمَذَ.

(٤) إقليم فَرغانَةَ

أ- فَرغانَةَ.

ج- أُوشَ.

(٥) إقليم أَشْرُوسَنَةَ

أ- بُو مَجِكْتِ.

ج- سَابَاطَ

(٦) إقليم الشاش

أ- بِنَكْتِ.

ج- فَارَابَ.

المبحث الثانى: الأنهار الرئيسة فى بلاد ما وراء النهر:

أ- نهر جِيحُونِ.

ب- نهر سِيحُونِ.

المبحث الأول: العرض الجغرافى التفصيلى لبلاد ما وراء النهر

- تمهيد:

لا يخفى على دارسى التاريخ أهمية دراسة الجغرافيا عامة؛ وجغرافية الإقليم المطروح للدراسة خاصة. وذلك لأن الجغرافيا - كما يقول الدكتور جمال حمدان - «قد تكون صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض. كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان فالتاريخ - كما عبر البعض - ما هو إلا جغرافية متحركة، بينما الجغرافيا تاريخ توقف»^(١).

ولا يتصور - مطلقا - فهم الإنسان، بدون دراسة البيئة الجغرافية التى نشأ وتربى فيها، إذ لا يخفى - على أحد - أن أثر البيئة كبير على الإنسان، أو كما يقول الأستاذ «هنرى بر» Henry Berr المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى «تطور الإنسانية». فى تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه: «الأرض والتطور البشرى». يقول: «لا ريب أن أثر البيئة قوى جدا على الإنسان؛ فالجفاف، والرطوبة، والرياح، والضوء، والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تُعدل من صفات الكائن الحى تعديلا دائما، أو مؤقتا. سواء كان هذا الكائن حيوانا أو نباتا. إن البيئة - بلا شك - تركت أثرها القوى فى تكوين الإنسان خلقا وتفننا»^(٢).

(١) د جمال حمدان: شخصية مصر، ص ٧-٨.

(٢) نقلا عن د. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبي، ص ٩. ولمزيد من التفاصيل عن أثر البيئة فى الإنسان، انظر عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافي، ج١، ص ٣٩٢ وما بعدها.

وإذا كان للبيئة كل هذا التأثير على الإنسان، فحرى بنا دراستها، كمدخل للدراسة السياسية أولاً والاقتصادية ثانياً.

مفهوم بلاد ما وراء النهر:

أطلق الجغرافيون العرب على المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهري سِيحُون - سِيرِ دَرْيَا حالياً - Sir Darya - وَجِيحُون - أُمُو دَرْيَا حالياً - Amu Darya - اللذين يصبان في بحر خوارزم - آرال حالياً - والشاطئ الأيسر لنهر سيحون، ويشمل طخارستان، والختل، هذه البلاد أطلق عليها المسلمون - قديماً - بلاد ما وراء النهر^(٣).

يصف المقدسي البشارى (ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) هذا الإقليم بقوله: هو أجل الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء و(هو) معدن الخير، ومستقر العلم؛ وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم؛ ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود. فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك... ترى به رساتيق^(٤) جليلة، وقرى نفيسة، وأشجارا ملتفة، وأنهارا جارية، ونعماً ظاهرة. ونواحي واسعة، ودينا مستقيماً^(٥).

ولا يتبادر إلى أذهاننا أن بلاد ما وراء النهر - بعد هذا الوصف الرائع من المقدسي - كانت تكون وحدة جغرافية واحدة، بل على العكس، فقد قامت في هذه المنطقة عدة ممالك مستقلة عن بعضها البعض^(٦). وهذه الممالك منها ما يقع على نهر جيحون وهي: مملكة طخارستان، ومملكة

(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص ١٤٥.

(٤) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى وهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد.

ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٠.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٣٦٠.

(٦) د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص ٣٣٨ -

٣٣٩. و د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٨، ص ٥٨٢.

الختل، ومملكة صغانيان. ومنها ما يقع بين نهري جيحون وسيحون وهي: مملكة الصغد (بخارى وسمرقند)، ومملكة خوارزم. ومنها ما يقع خلف نهر سيحون وهي: مملكة فرغانة، ومملكة أشروسنة، ومملكة الشاش وإيلاق.

وعلى ذلك؛ فيمكننى تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم وهي:

- (١) إقليم الصغد: وهو (صغديانا القديمة) عاصمته بخارى وسمرقند.
- (٢) إقليم خوارزم: فى غرب الصغد، وهو الإقليم المعروف اليوم برخيوة). ويشتمل على دلتا نهر جيحون.
- (٣) إقليم طخارستان: فى الجنوب الشرقى ومعه الصغانيان، والختل وغيرهما من الكور التى تقع فى أعلى جيحون، وإليه أيضاً تعود (بذخشان). وإن وقعت فى ضفته اليسرى، أى الجنوبية، فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها.
- (٤) إقليم فرغانة: فى أعلى نهر سيحون.
- (٥) إقليم أشروسنة: فى أعلى نهر سيحون كذلك.
- (٦) إقليم الشاش: وهو اليوم إقليم (طشقند)، مع النواحي التى فى الشمال الغربى الممتدة حتى مصب نهر سيحون فى بحر آرال (بحيرة خوارزم).

ولما كان من الصعب علىّ فى هذا العرض الجغرافى - ذكر بلاد ما وراء النهر بالتفصيل، لذلك فسوف أقصر على ذكر أهم هذه البلدان. ولنبدأ بالأقاليم الواقعة بين جيحون وسيحون وأهمها:

أولاً: إقليم الصغد:

يشمل هذا الإقليم الأرض الخصبة الواقعة فيما بين نهري جيحون وسيحون؛ وهو عبارة عن قرى متصلة، خلال الأشجار والبساتين. وهذا

الإقليم «من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار»^(٧). وتبلغ مساحة الصغد^(٨) ستة وثلاثون فرسخاً^(٩) في ستة وأربعين فرسخاً. وأجل مدن الصغد: بخارى وسمرقند، ويمكن القول: إن سمرقند كانت مركزه السياسي؛ بينما كانت بخارى عاصمته الدينية، ومع ذلك فالمدينتان كانتا في مرتبة واحدة.

والآن نتعرف على بخارى؛ وأهم المدن التابعة لها. ثم نثنى القول على سمرقند وأهم مدنها، ثم نأتى إلى باقى المدن الأخرى.

(أ) بُخارى:

مدينة تقع فى واحة جميلة يمر بها نهر زرافشان^(١٠) أحد روافد نهر جيحون. ويقدم لنا العالم الجغرافى الرحالة الإصطخرى (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) وصفا رائعا لهذه المدينة فيقول: «وأما نزهة ما وراء النهر فإن لم أر، ولا بلغنى فى الإسلام بلدا أحسن خارجا من بخارى، لأنك إذا علوت قهندزها [قلعتها] لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وليس بما وراء النهر وخراسان بلدٌ أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى؛ ولا أكثر عدداً على قدرها فى المساحة منهم. وذلك مخصوص بهذه البلاد»^(١١).

(٧) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٦٥.

(٨) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٤٤.

(٩) الفرسخ: يقدر بنحو اثني عشر ألف ذراع، وهو يساوى ثلاثة أميال، ويقدر حالياً بنحو ٥٥٤٤ متراً، انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٤، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٩. د. محمد ضياء الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ٢٩٠ - ٣٠٠.

(١٠) نهر زرافشان: معناه نائر الذهب، وهو رافد هام من روافد نهر جيحون، فامبرى: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ص ٣٣.

(١١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٦٤.

ويضيف القزويني فيقول: «بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة طيبة لم أر ولا بلغنى أن فى جميع بلاد الإسلام مدينة أحسن خارجا من بخارى؛ هى بلاد الصغد أحد متنزهات الدنيا»^(١٢). وعلى ذلك، فقد كانت بخارى مدينة عظيمة، تمتاز بقصورها العالية. وجناتها المتدانية. وقراها متصلة العمارة، تصل مساحتها إلى سبعة وثلاثين ميلا فى مثلها^(١٣). ويتفق كل من صاحب «معجم البلدان»^(١٤) و«صبح الأعشى»^(١٥) إلى أن بخارى كانت: «أم الأقاليم، ويم التقاسيم، ومستقر الحكم... وكانت كل الممالك تبعاً لها».

نشأة بخارى:

أما عن نشأة المدينة، فهى كسائر المدن القديمة الأخرى، يكتنفها الغموض، ويحيط ببناؤها اللبس، وتختلط الحقيقة بالأسطورة، وأقدم وصف ورد إلينا عن بناء المدينة ندين به للنرشخى، ونلخصه فيما يلى: إن هذا الموضع - المعروف اليوم ببخارى - كان يتكون من بركة ومروج كثيرة، وفى بعض أجزائه كان لا يوجد مخاضة للإنسان أو الحيوان، وذلك لأن الثلوج كانت تذوب على الجبال بالولايات التى بناحية سمرقند، فيجتمع الماء هنالك. وكان هذا الماء - دائما - يحمل الطمى. ثم توقف جريان هذا الماء بعد فترة من الزمن. ثم طمر هذا الموضع الذى يقال له «بخارى» وتمهدت الأرض، واجتمع الناس من كل صوب. وازدهر ذلك المكان بمرور الوقت، فأعجب الناس به، وأقاموا فيها.

(١٢) القزويني: آثار البلاد، ص ٥٠٩.

(١٣) مجهول: البلدان، مخطوط، ورقة، ص ٨٣.

(١٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨٠.

(١٥) القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ص ٤٣٤.

وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون فى الخيام والسراقات، ثم تجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر، ثم نصبوا أميرا عليهم^(١٦). يتضح لنا من هذه القصة: أن مدينة بخارى قد أنشئت قبل الإسلام بقرون عدة فى موضع المدينة الحالى. وأما عن اسمها، فقد اشتق من كلمة «بُخر»؛ وهى صيغة تركية مغولية للكلمة السنسكريتية «فهاره»^(١٧). ومعناها صومعة أو دير. وذلك لأن البوذيين كان لهم معبد فى بخارى، أو على مقربة منه فى سمرقند.

مناخ بخارى:

أما عن مناخ المدينة، فهى تتميز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب وذلك لقربها من المناطق الجبلية شتاؤها طويل بارد؛ وربيعها ممطر، وصيفها حار جاف، وخريفها يتميز بالنشاط. والمناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء قصير^(١٨). ويعتبر الجزء الشمالى منها أخصب بقاعها لاحتوائه على وادى خصب يؤدى إلى سمرقند.

وصف المدينة:

اسم بخارى القديم هو «بُومِجَكْت»^(١٩): وهى مدينة على أرض مستوية، وبنائها من الخشب المشبك. وتحيط بها القصور والبساتين

(١٦) النرخشى: تاريخ بخارى، ص ١٨-٢٠.

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية، «مادة بخارى»، م ٦، ج ٤، ص ٣٤٦-٣٤٧.

(١٨) د. خالد عزب: بخارى الشريفة - تاريخها وتراثها الحضارى، ص ٩٠٨.

(١٩) أوردها (بالتاء) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٩٧، والإصطخرى: المسالك،

ص ١٧٦. بينما وردت (بالتاء) عند السمعانى: الأنساب، ج ١، ص ٣٩٨، ج ٤، ص ٦٩٥،

وباقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٩.

والمحال والطرق المبلطة والقرى المتصلة. ويحيط بها سور واحد ضخـم يبلغ طوله اثنا عشر فرسخاً في مثلها، ثم سور داخلي يبلغ طوله نحو فرسخ في مثله. وهذا السور الحصين داخله القلعة.

وللمدينة سبعة أبواب وهي: باب المدينة الرئيسي، وباب نور، وباب حقره، وباب الحديد، وباب القلعة (القهندن)، وباب مهر، وباب بنى أسد^(٢٠). كما كان للمدينة كثير من الدروب.

ومن الجدير بالذكر: أن المدينة قد أحيطت ببوابات من حديد بلغ طول وعرض كل منها أربعة أمتار. وعلت جانبيها الأيمن والأيسر أبراج هائلة. وكانت هذه البوابات تقفل مساء كل ليلة بأقفال ضخمة. ثم تؤخذ المفاتيح إلى القلعة لتحفظ حتى الصباح^(٢١) وبخارى حالياً تقع على المجرى الأسفل لنهر زرافشان، وهي ترتفع عن سطح البحر بنحو (٧٢٢) قدماً، أى حوالى (٢٢٢.٤ متراً). وهي جزء من جمهورية أوزبكستان^(٢٢) التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى - سابقاً - فى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ). وعاصمتها طشقند.

مدن بخارى:

تضم بخارى كثيراً من المدن والقرى، نكتفى بذكر خمسة فقط منها، وهى:

(١) الطواويس: أعظم مدن بخارى، وهى مدينة جلييلة، ومجمع عظيم ينتابه الناس من أقطار ما وراء النهر. وقد ذكر النرشخى إن

(٢٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٨.

(٢١) فيتالى تومكين: بخارى، ص ٢١.

(٢٢) د. محمود أبو العلا: المسلمون فى الاتحاد السوفيتي، ص ٦٠-٦١، وملف الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات، ص ٢٢٨ وما بعدها.

اسم المدينة القديم (أرقود)^(٢٣). وكان يسكن بها قوم منعمون مترفون. في بيت كل منهم طاووس - من باب الترف - وعندما دخلها العرب سموا تلك القرية بذات الطاوويس، ثم زال اسمها الأصلي وحذفوا كلمة «ذات». ومن ثم عرفت المدينة بالطاوويس والمدينة كثيرة البساتين، خصبة الأرض، لها قلعة داخل المدينة وبها مسجد جامع.

(٢) كَرْمِيْنِيَّة: بلدة من نواحي بخارى، كثيرة الأشجار والماء، وهي تقع بين بخارى وسمرقند، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخًا. وهي أكبر من الطاوويس، وأعمر، وأكثر عددًا وأخصب^(٢٤). ويؤكد النرشخي على أن اسم المدينة القديم هو «بادية خردك»^(٢٥). غير أنه لم يمدنا بمعلومات تفيدنا في معرفة تطور هذا الاسم.

(٣) بِيَكَنْد: مدينة جميلة تقع على جبل قليل الارتفاع، تبعد عن بخارى بأربعة عشر فرسخًا. وهي ثغر من ثغور المسلمين، فيوجد بها أكثر من ألف رباط. يقول الإصطخرى: «... غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم في بلدان ما وراء النهر أكثر عددًا منها»^(٢٦). وقد تميزت المدينة بكثرة المزارع، واتساع العمران. وكان لها سور حصين يحيط بها للدفاع عنها ضد الأعداء. وكان بها مسجد جامع، ليس بما وراء النهر محراب أحسن زخرفة منه.

أما معنى (بيكند) فإن فامبرى يذكر أن معناها مدينة الأمير^(٢٧). وقد زارها السمعاني بعد أن خربت وقال عنها: «وقد رأيت آثارها والأطلال

(٢٣) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٢٧-٢٨.

(٢٤) مجهول: (كتبه عام ٣٧٢هـ): حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ص ٨٤. ياقوت

الحموي: معجم البلدان، ج-٢، ص ١٣٤.

(٢٥) النرشخي: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٧٥.

(٢٧) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٤٥.

المندرسة بها»^(٢٨). ومن الجدير بالذكر: أن أهل بيكند كانوا يفخرون بها. فإذا ذهب الواحد منهم إلى بغداد وسُئِلَ من أين أنت؟ قال: من بيكند. ولا يقول من بخارى.

(٤) مَغْكَان: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ من بخارى، عن يمين الطريق إلى بيكند، بينها وبين الطريق نحو ثلاثة فراسخ^(٢٩). كان لها حصن، وجامع به ماء جار، وهي قرية عامرة ذات زروع وفواكه.

(٥) فَرْبُر: مدينة تقع بين نهر جيحون وبخارى، بينها وبين النهر فرسخاً، خصبة الأرض، ولها قرى تابعة لها جميعها عامرة، والمدينة مشهورة بفاخر المطاعم والمآكل اللذيذة الطيبة. وكان بها مسجد جامع كبير^(٣٠)، بنيت جدرانه وسقفه من الآجر. ولا يوجد فيه خشب قط، وذلك لقربها من النهر، وكان للمدينة أمير وقاض خاص بها. وقد زارها السمعاني^(٣١) وأقام بها أياماً في أثناء انصرافه من بلاد ما وراء النهر. ولا أستطيع أن أذكر قرى بخارى بالتفصيل^(٣٢) ونكتفى بذلك وانتقل إلى سمرقند.

(ب) سمرقند:

المدينة الثانية في إقليم الصغد، وتقع هذه المدينة على نهر زرافشان - رافد نهر جيحون - وسمرقند مدينة إسلامية تضرب بجذورها في

(٢٨) السمعاني: الأنساب، ج١، ص ٤٣٤.

(٢٩) كي لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٥.

(٣٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٠٣. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٢٢.

(٣١) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص ٣٥٩.

(٣٢) ذكر المقدسي أن عدد قرى بخارى نحو ستة عشر ألف قرية. أحسن التقاسيم، ص ٢٦٨. وإن كنت أرى أن كلمة (ألف) زائدة أو كتبت سهواً لأن جميع المصادر التي بين أيدينا لم تذكر هذا العدد من القرى.

التاريخ. فهي تبعد عن بخارى بنحو مائة وخمسين ميلاً^(٣٣) وتقوم على مسافة قصيرة من الضفة الجنوبية لنهر الصغد على مكان مرتفع قليلاً من الأرض.

هذا؛ وقد تغنى الرحالة المسلمون وأبدعوا في وصف سمرقند وفضلوها على سائر بقاع الأرض. يقول الإصطخرى: «وأما صغد سمرقند فإنها أنزه الأماكن... لأنها مشتبكة الخضرة والبساتين؛ فهي ميادين وبساتين ورياض مشتبكة قد حفت بالأنهار الدائم جريها. والحياض في صدور رياضها وميادينها. مخضرة الأشجار والزروع، ممتدة على جانبي واديها ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها» ثم يختتم كلامه بقوله: «وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية، قل ما تخلو سكة أو دار من نهر جار»^(٣٤).

وهذا الوصف الرائع يقدم لنا صورة صادقة عن سمرقند العريقة. ويبدو لي إن الإصطخرى لم يكن وحده المعجب بسمرقند، بل إن جميع الفاتحين قد أعجبوا بها وقدروها. فقد ذكرت كتب التاريخ أن رجلاً من خراسان قدم على كسرى أنوشروان أثناء حروبه مع الترك في فرغانة فقال كسرى للرجل: أخبرني مَنْ أحسن أهل خراسان لقاءً؟ قال الرجل: أهل بخارى. قال كسرى: فَمَنْ أحسنهم ضيافة؟ قال الرجل: أهل سمرقند. فأعجب كسرى بها. وقيل: «إن الرحالة القدماء قد اختبروا البلاد، وما تمتاز به فوجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً؛ ماءً سمرقند»^(٣٥).

(٣٣) الميل البري: يساوي أربعة آلاف ذراع، يقدر بنحو (١٨٤٧) متراً، فهو يساوي (١٠,٨٨٠) كم. د. الريس: الخراج والنظم المالية، ص ٣٠٠.
(٣٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٦٥.
(٣٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١، ص ٢٩٥-٢٩٦.

ولما أشرف قتيبة بن مسلم (٤٩-٩٦هـ/ ٦٦٩ - ٧١٥م) على سمرقند رأى منها منظرًا فى غاية الحسن، تحار فيه العيون. فقال لأصحابه شبهوها: فلم يأتوا بشيء. فقال لهم: كأنها السماء فى الخضرة وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المجرّة^(٣٦). فاستحسن أصحابه هذا التشبيه جدًا. وتعجبوا من صدقه فى هذا الوصف. وهكذا؛ يبدو لنا أن سمرقند كانت مدينة حسنة شبيهة ببخارى، وكانت تمتاز بقصورها العالية، وأنهارها المتدفقة وجوها العليل. مما جعلها مطمح الأنفس. لذا فقد صارت مقرًا للتجار يجتمعون فيها من مختلف الآفاق.

- نشأة سمرقند:

أما عن نشأة المدينة فقد اختلفت المصادر حول المؤسس الحقيقى لها. فيذكر القزوينى: أن المدينة من بناء كيكافوس بن كيقباز ملك الفرس^(٣٧)، بينما يذكر ياقوت: أن المدينة من بناء الإسكندر المقدونى (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) ملك اليونان. والذى بنى عليها سورًا ضخماً، بلغ طوله اثنا عشر فرسخًا. ومن ثم فقد أطلق على المدينة الإسكندرية^(٣٨) نسبة إليه.

- وصف سمرقند:

وأما عن وصف سمرقند، فهى مدينة تمتاز بموقعها الجغرافى على نهر زرافشان. وتضرب بجذورها فى التاريخ وبغض النظر عن المؤسس الحقيقى لها، فإن أقدم وصف وصل إلينا لسمرقند الإسلامية فإننا ندين به لابن الفقيه الهمذانى (ت ٢٩٠هـ - ٩٠٣م) والذى ذكر أن للمدينة

(٣٦) انظر الخبر بطوله فى الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٢١٧.

(٣٧) القزوينى: آثار البلاد، ص ٥٣٥.

(٣٨) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ١، ص ١٥٠.

اثنى عشر باباً من الخشب، ولكل باب مصراعان، ويوجد خلف كل باب؛ باب آخر ذو مصراعين أيضاً^(٣٩).

وقد شغلت مساحة المدينة الداخلة، ألفين وخمسمائة جريب^(٤٠). وكان يقوم بها المسجد الجامع والقلعة وقصر الإمارة. وهى تختلف عن بخارى فى أن قلعتها كانت بداخل المدينة، ولسمرقند (المدينة الداخلة) أربعة أبواب، هى^(٤١): باب الصين فى جهة المشرق. وباب بخارى من جهة الشمال. وباب النوبهار فى جهة الغرب، والباب الكبير ويعرف باب (كش) فى جهة الجنوب. كما تمتعت المدينة بدروبها الواسعة الفسيحة.

وهكذا ظلت سمرقند تنعم بالسلام والرخاء والهدوء، حتى وقعت تحت الغزو الروسى البغيض فى عام (١٨٦٨م / ١٢٧٣هـ). فتغيرت ملامحها الجغرافية^(٤٢). ثم عادت إليها الحياة مرة ثانية وذلك بعد حصول أوزبكستان على استقلالها فى (١٩٢٤م / ١٣٤٣هـ). وصارت سمرقند جزءاً أصيلاً من هذه الدولة.

(٣٩) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٢٥.

(٤٠) الجريب: يختلف عبارته من بلد إلى آخر. فكان بالعراق يساوى (٣٦٠٠ ذراعاً). وفى خراسان يساوى عشرة أقدرة. انظر الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص ٦٦-٦٧. والماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٨٣-٢٨٩. ويقدر الدكتور الرئيس: مساحة الجريب - حالياً - بنحو (١٣٥٠٠٠) متراً مربعاً كتاب: الخراج والنظم المالية، ص ٢٩٠. بينما يرى (هنش) إن مساحة الجريب «القانونى» كان يعادل (١١٩٥٢م) فى العصور الوسطى المبكرة. أما فى العصور الوسيطة المتأخرة فكان يعادل (٩٥٨م) بإيران والمناطق المتاخمة لها. انظر بارتولد: تركستان، مرجع سابق، ص ١٧١. حاشية (١٨٣).

(٤١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٨.

(٤٢) د. جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١١٥. سعيد أحمد محمد: التأثير الأيديولوجى للروس على المجتمعات الإسلامية بوسط آسيا «أوزبكستان» رسالة ماجستير، معهد الدراسات الآسيوية، جامعة القازيق، ص ٤٥ وما بعدها.

مدن سمرقند:

تمتاز سمرقند بكثرة مدنها وتعددتها. ولا أستطيع ذكرها كلها في هذا العرض الجغرافى، لذا سأكتفى بذكر أهم المدن، وهى كالتالى:

(١) وَرَغَسَر: قرية كبيرة من قرى سمرقند، تُسقى من نهر الصُغد وعندها مقاسم مياه النهر، وبها كثير من الكروم والبساتين. وقد أزيل عنها الخراج. وجُعِلَ على أهلها إصلاح «سِكُور»^(٤٣) الماء كما يقول الإصطخرى^(٤٤). وليس بها مسجد جامع.

(٢) مَا يُمَرُغ: قرية من قرى سمرقند، على بُعد فرسخ من جنوبها كان بها مقام الإخشيد ملك سمرقند، وبها قصوره. قال المقدسى: «وليس فى جميع الرساتيق أكثر قرى وأشجاراً وخيرات منه»^(٤٥). وقد نزلها السمعانى وقت خروجه إلى بخارى. وقال عنها: «وهى قرية كبيرة حسنة»^(٤٦).

(٣) يَارَكُث: مدينة تقع على بُعد أربعة فراسخ من سمرقند، وماؤها من عيون لأن نهر الصغد لا يصل إليها، وكانت المدينة من قرى أشروسنة ثم حولت إلى سمرقند، وليس بها مسجد جامع^(٤٧). وكان يقال لها قديماً [آهنكران]. ويقول فامبرى: إن معناها الملجأ والملاذ مشتق من كلمتى (بناء كت)^(٤٨). بينما يرى بارتولد: أن الكلمة الصحيحة (ياركث) — بالثاء — لأنها تتألف من كلمة (كث) ومعناها: قرية أو مدينة أو قلعة^(٤٩).

(٤٣) السِكُور: هو السد الذى يبني على النهر لحجز المياه. المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٣٨.

(٤٤) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٧٧.

(٤٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٩.

(٤٦) السمعانى: الأنساب، ج ٥، ص ١٨٤.

(٤٧) مجهول: حدود العالم، ص ٩١. السمعانى: نفس المصدر، نفس الجزء، ص ٦٧٤.

(٤٨) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٤٥.

(٤٩) دائرة المعارف الإسلامية. مادة "ياركث"، ٨م، ج ٥٢، ص ١٣٩.

والجدير بالذكر: أن المدينة خربت على يد المغول، وأن أطلالها القديمة تعرف اليوم باسم «شركيه».

(٤) دَرَعَم: قرية تقع في جنوب سمرقند، على بُعد فرسخين منها وهي من أركى أماكن سمرقند في الزراعة، وليس بها مسجد جامع^(٥٠). وتشتمل على عدة قرى تصلها بمدينة (ما يمرغ) نزل بها السمعاني وأقام فيها أثناء زيارته إلى سمرقند^(٥١).

(٥) كَبُودُ نَجَكْت: بلدة تبعد فرسخان عن سمرقند، مشتبكة الأشجار. خصبة الأرض^(٥٢). مازالت قائمة حتى اليوم وتعرف باسم «بنجكيز»^(٥٣). (٦) الكَشَانِيَّة: بلدة بنواحي سمرقند، تبعد عنها اثني عشر فرسخًا شمال وادي الصُغد. ويطلق عليها قلب الصغد. وذلك لأنها أعمار مدنه، وأهلها من ذوى اليسار والثراء^(٥٤).

(ج) مدينة كِش:

المدينة الثالثة من مدن إقليم الصغد، وهي مدينة عظيمة لها قلعة وحصن. بنيت من الآجر لأنها غزيرة الأمطار. ولها نهران يمران بها ينتفع بهما في الزراعة. وللمدينة أربعة أبواب. هي: باب الحديد، وباب عبيد الله، وباب القصابين، وباب المدينة الداخلة^(٥٥). وكش حاليًا إحدى مدن أوزبكستان، ويقال لها اليوم «شهر سبز» ومعناها المدينة الخضراء.

(٥٠) ياقوت: معجم البلدان، ج-٣، ص ٢٩٧.

(٥١) السمعاني: الأنساب، ج-٢، ص ٤٧٠.

(٥٢) مجهول: حدود العالم، ص ٨٥.

(٥٣) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٠٩.

(٥٤) اليعقوبي: البلدان، ص ٣٩٣.

(٥٥) ابن حوقل: نفس المصدر، ص ٤١٢.

(د) مدينة نَسَف (نَخْشَب):

المدينة الرابعة من مدن إقليم الصغد، وهي مدينة كبيرة عظيمة الاتساع، بنيت من الآجر، غزيرة الأمطار، تقع على بُعد مائة ميل تقريبًا من مدينة كش من ناحيتها الغربية. ولها قلعة وحصن، وأرضها خصبة. وللمدينة أربعة أبواب، وهي: باب البخارية، وباب سمرقند، وباب كش، وباب غوبذين^(٥٦). والمدينة تقع على الطريق المؤدى من بخارى إلى بلخ. وقد مدح المقدسى كثرة أعناب المدينة، وأثنى على اتساع أسواقها. غير أنه عاب أهلها بقوله: «وهى كثيرة الأعناب الجيدة، والمزارع العذبة الطيبة... وأهلها غاغة، وبها عصبيات وحشية، وهم قوم سوء»^(٥٧). ويذكر السمعاني أنه أقام بها قريبًا من شهرين، وسمع بها جماعة من العلماء، ويثنى على المدينة بكثرة علمائها^(٥٨). ومدينة نسف هى التى ذكرها أبو تمام فى قصيدته التى يمتدح فيها الخليفة المعتصم العباسى فقال:

تهابك الروم فى معاقلها والترك تخشاك من وراء نسف
ثانيًا: إقليم خُوارزَم^(٥٩):

خوارزم، اسم يطلق على الإقليم. وهو منقطع عن خراسان، فالصحارى تحيط به من كل الجوانب. يحده من الغرب والشمال بلاد الترك. ومن

(٥٦) ابن حوقل: نفس المصدر، ص ٤١٣. القزوينى: آثار البلاد، ص ٤٦٦.

(٥٧) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٣.

(٥٨) السمعاني: الأنساب، ج ٥، ص ٤٨٦.

(٥٩) ضبطها ياقوت هكذا: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة ليست بألف صحيحة. ثم قال: «هكذا يتلفظون به» وقد سبق القول إن البلدة الوحيدة التى دخلها ياقوت من مدن ما وراء النهر هى خوارزم وذلك عام ٦١٦هـ (١٢١٩م) انظر: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٥٢.. أما السمعاني: فقد ذكر الكلمة دون ضبط لها. انظر: الأنساب، ج ٢، ص ٤٠٨.

الجنوب خراسان. ومن الشرق بلاد الصغد، ويمتد على جانبي نهر جيحون، ويطل بقاعدة عريضة على بحيرة خوارزم (بحر آرال) حاليًا. وهذا الإقليم مشهور بكثرة المدن والقرى. قال جابر الله الزمخشري: «بخوارزم فضائل لا توجد في غيرها من سائر الأقطار، وخصال محمودة لا تتفق في غيرها من الأمصار، قد اكتنفها أهل الشرك، وأطافت بها قبائل الترك. فغزو أهلها معهم دائم والقتال فيما بينهم قائم، وقد أخلصوا في ذلك نياتهم، وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات... وقد خصها الله (تعالى) بنهر جيحون، وإد عسر المعبر، بعيد المسالك، غزير الماء كثير المهالك، وأهلها أصحاب نفوس أبيية، ولهم الوفاء والأمانة»^(٦٠) ولا غرابة في ذلك فالإمام الزمخشري يمدح وطنه، ومسقط رأسه لأنه من قرية زمخشر - إحدى قرى خوارزم - وهو القائل:

ولم أر في الناس قومًا كقومي ألف وألفًا ببؤس وضر
وأبعد عن فجره يتقى وأسرع خطوًا إلى كل بر^(٦١)

ويقول ابن أرسلان الخوارزمي: «خوارزم مين (هكذا) أرض رخوة، وهي من ثغور الإسلام، ودار رباط... ومما لا ينكر من فضائلها طيب الهواء، وعذوبة الماء، والبساتين على شطها، والأنهار إلى القرى والمزارع. تطرد من جانبيها الأغذية الشهية، والفواكه الطيبة المتوفرة. فقد اتفق التجار الجوالون (على) أن مثلها لا يوجد»^(٦٢).

(٦٠) القزويني: آثار البلاد، ص ٥٢٥.

(٦١) الخوارزمي: تاريخ خوارزم، مخطوط، ورقة ٤.

(٦٢) الخوارزمي: نفس المخطوط، ونفس الورقة.

نشأة خوارزم:

أما عن نشأة المدينة فهي أيضاً يكتنفها الغموض، يحدثنا المقدسي عنها ما ملخصه: أن أحد الملوك القدماء - لم يسمه - غضب على أربعمائة من أهل مملكته فأمر بنفيهم إلى موضع منقطع عن العمارات، فكان هذا المكان (كاث) - إحدى مدن خوارزم - فقام الناس ببناء أكواخ لهم؛ وكانوا يعيشون على صيد الأسماك فليل لهم: كيف حالكم. فقالوا: عندنا هذا اللحم، وأشاروا إلى السمك. وعندنا هذا الحطب، فنحن نشوى هذا بهذا، ونتقوت به، فأطلق عليهم الملك [خوارزم]. لأن اللحم بلغة الخوارزمية (خوار) والحطب (رزم)^(٦٣). يقول ياقوت: ثم خفف استئثالا لتكرير الرء فقيل خوارزم^(٦٤). أما فامبرى فيؤكد على أن معنى الكلمة المحارب^(٦٥). أما اليعقوبى فيطلق عليها اسم «بيل» ويقول: «خوارزم واسمها (بيل) وهى جانبان يشقها جيحون، ويعبر نهر بلخ إلى الترمذ والنهر يضرب سورها ومدينتها»^(٦٦). ويسمى ابن أرسلان الخوارزمى «المنصورة»^(٦٧). وبالجملية؛ فأقليم خوارزم عبارة عن كورة جليلة واسعة كثيرة المدن، ممتدة العمارة... كثيرة المزارع والشجر والفواكه والخيرات، مفيدة للتجار... حيث رزقهم الله تعالى الرخص والخصب^(٦٨).

مدن خوارزم:

والآن نتعرف إلى بعض مدن إقليم خوارزم. وهى:

- (٦٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٥.
- (٦٤) ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٥٢.
- (٦٥) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٢٣.
- (٦٦) اليعقوبى: البلدان، ص ٣٢٤. ولم يرد هذا الاسم فى باقى المصادر.
- (٦٧) الخوارزمى: تاريخ خوارزم، مخطوط، ورقة ٤.
- (٦٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(١) كَاثُ: بلدة كبيرة تقع شرق جيحون، لها قلعة حصينة، والجامع في وسط الأسواق، بنى من الحجارة على أساطين، مغطى سقفه بالخشب. وجدير بالذكر، أن النهر قد حطم المدينة «حتى لم يبق منها رسم ولا طلل»^(٦٩) كما يقول ابن حوقل، ثم ابتنى الناس مدينة (كاث الجديدة). وكانت إلى الشرق قليلاً من المدينة القديمة، على بُعد مسافة من نهر جيحون كي تكون بعيداً عن مخاطر الفيضان.

وتشير المصادر الجغرافية^(٧٠) إلى أن معنى (كاث) بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء. وبمرور الوقت صارت (كاث) قسبة الإقليم، وباب تركستان، وفرضة بلاد ما وراء النهر.

(٢) كُرْكَانَج [الْجُرْجَانِيَّة]: العاصمة الثانية للإقليم بعد (كاث) وهي أكبر مدن خوارزم. كانت تسمى قديماً مدينة (الفيل). وأطلق عليها المسلمون اسم الجرجانية. وتذكر المصادر الجغرافية^(٧١) أن نهر جيحون قد حطم المدينة القديمة وخرّبها - كما حطم كاث - فابتنى الناس مدينة جديدة مكانها، وقد احتالوا في رد خطر الماء بإقامة السدود من الخشب والخطب. ويقدم لنا المقدسي وصفاً لهذه المدينة فيقول: «إن للبلد أربعة أبواب - لم يذكر أسماءها - وهي في كل يوم في زيادة، وعلى باب الحجاج - أحد أبواب المدينة - قصر بناه المأمون^(٧٢) عليه باب ليس بجميع خراسان أعجب منه»^(٧٣).

(٦٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٥.

(٧٠) مجهول: حدود العالم، ص ٩٤، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٢.

(٧١) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ١٦٨. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٥.

(٧٢) المأمون: هو محمد الملقب بخوارزمشاه، أمير كركانج، الذي أخضع البلاد لحكمه عام (٣٨٥هـ / ٩٩٥م)، وخلفه في الحكم ابنه على عام (٣٨٧هـ / ٩٩٧م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٤٩٠.

(٧٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٨.

وجدير بالذكر: أن ابن فضلان في رحلته التي قام بها في عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١ م) قد دخل خوارزم، ووصف بردها الشديد، وذم أهلها، كما دخل مدينة (الجرجانية) وحدد المسافة بينها وبين خوارزم بأنها خمسون فرسخًا، وأقام بها عدة أيام. وقال: «فأينا بلدًا ما ظننا إلا أن بابًا من الزمهرير قد فتح علينا منه»^(٧٤). وبعد ارتفاع درجة الحرارة - نوعًا ما - واصل ابن فضلان رحلته إلى بلاد الصقالبة وفي سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م زار ياقوت الحموي الجرجانية أو كركانج كما سماها. وذلك قبيل الغزو المغولي لها. فقال عنها: «ولا أعلم أنى رأيت أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالا، وأحسن أحوالًا»^(٧٥).

(٣) هَزَارَ أَسْبَ: معناها بالفارسية «ألف فرس». وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر جيحون. وقد وصفت المدينة بأنها كبيرة، ولها قلعة حصينة، أبوابها من الخشب، ولها خندق أمامها. أما الماء فإنه يحيط بها من جميع الجهات. لذلك فقد اضطر الناس إلى عمل جسر يعبرون عليه^(٧٦). وقد دخلها ياقوت عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وقال عنها: «وفيها أسواق كثيرة و بزازون، وأهلها ذوو ثروة»^(٧٧). والجدير بالذكر، أن اسم المدينة لم يتغير منذ الفتح الإسلامى وحتى اليوم.

(٤) رَمَخْشَر: قرية صغيرة تقع بالقرب من الجرجانية. ويربط بينهما جسر عائم يرفع فى مساء كل ليلة. وللمدينة حصن وخندق، وأبوابها من الحديد^(٧٨)، وبوسطها طريق كبير يشقها، ويقع الجامع فى طرف السوق.

(٧٤) ابن فضلان: رسالة بن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، ص ٨٢-٨٥.

(٧٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥.

(٧٦) السمعاني: الأنساب، ج٥، ص ٦٤٠، القزويني، آثار البلاد، ص ٥٦٧.

(٧٧) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٧٧، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٩٤.

(٧٨) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٩.

ويبدو أن زمخشر اتسعت بمرور الوقت حتى إن السمعاني عندما زارها قال عنها: «زمخشر قرية من قرى خوارزم كبيرة، بت بها ليلتين في توجهي إلى خوارزم»^(٧٩).

(٥) أرثُخْشَمِيَّتَيْن: تقع على بُعد مرحلة من مدينة (خيوه)، وعلى بُعد ثلاثة أيام من الجرجانية - عاصمة الإقليم - وهي مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة، ونعمة وافرة. أقام بها ياقوت عام ٦١٦هـ - ١٢١٩م عدة أيام^(٨٠). وقد خربها المغول ولم يبق لها أثر.

ثالثاً: إقليم طَخَارِسْتَان^(٨١)

يقع هذا الإقليم في أعلى نهر جيحون. وكان تابعاً لبلخ. وفي القرن الخامس الميلادي احتله الهياطلة. وفي القرن السادس الميلادي قضى الترك عليهم^(٨٢). واحتلوا المدينة. وكان حاكم طخارستان إبان غزوات المسلمين لها يلقب باللقب التركي [ييعور] وبالعربية [جبعوية]^(٨٣).

وطخارستان تنقسم إلى قسمين: طخارستان العليا وتشمل مدن الطالقان، والختل، وبذخشان، والصغانيان، وزم. وطخارستان السفلى وتشمل، خُلم، وسمنجان.

والآن نعرض لبعض هذه المدن:

(١) بَذَخْشَان: مدينة صغيرة؛ خصبة الأرض. بها الكروم، وتجري فيها الأنهار^(٨٤). وهي تقع على الشاطئ الأيسر من المجرى الأعلى لنهر

(٧٩) السمعاني: المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٣.

(٨٠) ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص ١١٩، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٩٧.

(٨١) ضبطها الإصطخري: طَخِيرِسْتَان، انظر المسالك والممالك، ص ١٥٦.

(٨٢) دائرة المعارف الإسلامية، "مادة طخارستان"، م٦، ج٤٥، ص ٣٤٦.

(٨٣) جبعوية: لقب ملك الترك الغزية، الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٢.

(٨٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ١٥٦، مجهول: حدود العالم، ص ٨٢.

جيحون، أو على وجه الدقة على الشاطئ الأيسر لنهر (بنج) - جرياب قديماً - أحد روافد نهر جيحون. لذا فقد وصفت المدينة بأنها ذات نعم وفيرة، كما اشتهرت بكثرة المعادن ومما هو جدير بالذكر، أن السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م] قد بنت هناك حصناً قوياً للدفاع عن هذه البلاد أمام هجوم الترك. قال السمعاني عنه «ورأيت بها حصناً عجيباً قل ما رأى الناس مثله»^(٨٥).

أما عن مكان مدينة بذخشان - حالياً - فيرجح لسترنج، أن مدينة [فيض آباد] قد قامت على أنقاض المدينة القديمة^(٨٦). وفيض آباد هذه تعد جزءاً من جمهورية طاجكستان المستقلة في ٥ ديسمبر ١٩٢٩م (٥ من ذى الحجة ١٣٤٨هـ)، عن الاتحاد السوفيتي السابق.

(٢) الخُتَل: مدينة تقع على المجرى الأعلى لنهر جيحون، بين نهري (بنج) و(وخش) اللذين عرفا عند الرحالة المسلمين باسم (جرياب) و(وخشاب). وقد أطلق على هذا الإقليم - أيضاً ختلان. وكان أمراءه قبل الإسلام يتلقبون باسم "ختلان شاه" يصف الإصطخرى هذه المدينة بأنها كثيرة الأنهار و الأشجار، في غاية الخصب، وأبنيتها من الطوب اللبن. وسورها من الحجارة^(٨٧). ومن أشهر مدنها هُلبُك - كلاب حالياً - ومُنْكَ - بلجون حالياً - والجدير بالذكر: أن هذه المدينة وقعت في القرن (١٠هـ - ١٦م) لسيطرة الأراككة، وأبطلوا استعمال اسم [الختل]، واستبدلوا به اسم المدينة الحديثة كلاب^(٨٨). وفي القرنين (١٨-١٩م)

(٨٥) السمعاني: الأنساب، ج١، ص ٣٠١.

(٨٦) دائرة المعارف الإسلامية، مادة بذخشان، ج٦، ص ٤٧٥، ٥٠٩.

(٨٧) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٥٦.

(٨٨) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الختل، ج١٦، ص ١٢٨، ٤٩٠.

أصبحت الختل جزءاً من جمهورية أوزبكستان، وذلك بعد ضمها إلى بخارى.

(٣) الصَّغَانِيَّان: مدينة تقع غرب نهر وخشاب - الوخش حالياً - ويحدها من الجنوب نهر جيحون. قال الإصطخري عنها: «وهى مدينة أكبر من الترمذ، إلا أن الترمذ أكثر مالاً وأهلاً، ولها قلعة»^(٨٩). ويضيف المقدسى: «وهى ناحية شديدة العمارة كثيرة الخيرات، بها ستة عشر ألف قرية (هكذا)، رخيصة الخبز، كثيرة اللحم. فى كل بيت ماء جار، قد التفت بها الأشجار»^(٩٠). ويقول السمعاني: «إن بها مسجد حسن مشهور»^(٩١) والصغانيان تعرف - حالياً - باسم سرآسيا.

(٤) التَرْمُذ: مدينة حسنة؛ تقع على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سُرْحَان. ويقول السمعاني إن أهلها ينطقون باسمها تَرْمِيز^(٩٢).

وكانت الديانة البوذية هى السائدة فى المدينة قبيل الفتح الإسلامى، وكان أميرها يدعى «ترمز شاه». وكان للمدينة قلعة حصينة تشرف على النهر. ونظراً لوقوع المدينة على النهر مباشرة فكانت مرسى مهما للسفن. كما قامت بها دار لصناعة السفن^(٩٣). ويتفق كل من الإصطخري وابن حوقل على أن المدينة قد بنيت من الطوب اللبن. وكانت معظم طرقها مفروشة بالأحجار، عامرة بالسكان^(٩٤).

(٨٩) الإصطخري: المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٩٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٨٣.

(٩١) السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ٤٥٩.

(٩٢) السمعاني: نفس المصدر، الجزء، والصفحة.

(٩٣) مجهول: حدود العالم، ص ٨٥، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٤١.

(٩٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ١٦٧، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٤.

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام (١٨٩٤م/١٣١٢هـ) بنى الروس حصن ترمذ Termez الذى على مسيرة خمسة أميال من أطلال ترمذ القديمة. وفى عام (١٩١٦م/١٣٣٥هـ) فتح الخط الحديدي الممتد بين بخارى وترمذ. ودمرت المدينة أثناء الثورة الروسية ثم أعيد بناؤها من جديد، وتسمى حالياً ترمز^(٩٥).

(٥) أَحْسَيْسَك: مدينة صغيرة تقع بحذاء مدينة زَمْ، وكان أهلها يعبرون إلى زم للصلاة فى جامعها، وكان يخرج منها طريق يربطها بمدينة نسف (نخشب). ومع ذلك فالمدينة حصينة، خصبة، بها آبار ومراع^(٩٦).
(٦) سَمَنْجَان: إحدى مدن طخارستان السفلى. وهذه المدينة كانت تقع بين الجبال، وكانت معظم بيوتهم منحوتة فى الجبل، وكان بها حصن عليه عدة أبراج للدفاع عنها ضد الأتراك، وقد انتشرت بها عبادة الأصنام، وكانت تسكنها طائفة من عرب بنى تميم^(٩٧). ويمدحها السمعانى - برغم وقوعها بين الجبال - بقوله: «وبها شعاب كثيرة، وثمار وأشجار»^(٩٨).

والآن: قد فرغت من ذكر المدن الواقعة على نهر جيحون، والمدن الواقعة بين نهري جيحون وسيحون ننتقل إلى المدن السيحونية:

رابعاً: إقليم فرغانة:

هو أحد أقاليم نهر سيحون، ويمتد لمسافة مائتى ميل على طول جانبي النهر، وأهم مدنه:

(٩٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة ترمذ، م٩، ج٦٩، ص٢٨٦-٢٩٠.

(٩٦) الإصطخرى: المصدر السابق، ص١٦٧، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٨٦.

(٩٧) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٧٠.

(٩٨) السمعانى: الأنساب، ج٣، ص٣٠٧.

(١) فَرَّغَانَةُ: مدينة واسعة بما وراء النهر، كثيرة الخيرات تَبْعُدُ عن سمرقند بنحو خمسين فرسخًا، يرجع بناؤها إلى الملك كسرى أنوشروان. ويقال: إنه نقل إليها مجموعة مختلفة من الناس وسماها [هرخانة]^(٩٩). وقيل سميت [أَزْهَر خانة] ومعناها بالفارسية [من كل بيت]^(١٠٠). ويسمونها اليعقوبى (كاسان) ويصفها بأنها «مدينة جليلة القدر، عظيمة الأمر»^(١٠١). وتمتاز فرغانة بأن الجبال والصحارى تحيط بها من جميع الجهات، ومع ذلك فالمصادر تجمع على أنها ذات نعم وفيرة، ومياه جارية، وضياع كثيرة^(١٠٢). وكانت أوسع قرى بلاد ما وراء النهر تقع فى فرغانة «وربما بلغت مساحة القرية مرحلة، لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومراعيهم»^(١٠٣).

وفى العصر الحديث وبالتحديد فى عام (١٨٧٦م/١٢٩٣هـ) وقعت فرغانة تحت الاحتلال الروسى، وأطلق عليه [خانية خوقند]. وبعد الثورة الروسية، أعادت إليها الحكومة الروسية رسمياً اسمها القديم فرغانة^(١٠٤)، والتى مازالت تعرف به حتى اليوم.

(٢) أَخْسِيكَتْ: عاصمة الإقليم، تقع على الشاطئ الأيمن لنهر الشاش - سيحون - ومعناها بلغة الصغد «مدينة الأمير» وتمتاز بأنها مدينة واسعة، مستوية، تبعد عن الجبال بنحو نصف فرسخ، وتبلغ

(٩٩) القزوينى: آثار البلاد، ص ٦٠٣.

(١٠٠) ياقوت: المصدر السابق، نفس الجزء، ص ٤٢٨.

(١٠١) اليعقوبى: البلدان، ص ٢٩٤.

(١٠٢) مجهول: حدود العالم، ص ٨٧.

(١٠٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٢٠، السمعاني: الأنساب، ج ٤، ص ٣٦٧.

(١٠٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ٦٩، جى ونت: أضواء على آسيا، ص ٦٢.

مساحتها نحو ميل فى مثله^(١٠٥)، وقد بنيت من الطوب اللبن، ولها قلعة عظيمة، ومسجد جامع، وبها المياه الجارية، والحياض الكثيرة. وقد ذكر ابن حوقل أبواب المدينة الخمسة وهى: باب بجير، باب المرقشة، باب كاسان، باب الجامع، باب رهابه^(١٠٦). أما المقدسى فقد دخل المدينة وأثنى عليها بقوله: «إنها بلد كبير خطير بالمشاجر المحيطة به، والأنهار الفائضة إليه مع عمارة وخصب ورخص». ولكنه ذم أهلها بقوله: «وفى أهلها غلظة وحمرة»^(١٠٧).

ظلت أخسيكت تنعم بالهدوء والسلام إلى أن فاقت على الغزو المغولى الذى دمر المدينة، وتركها أطلالاً مازالت قائمة إلى وقت قريب، ويطلق عليها «إسكى أخسى» وتبلغ مساحتها - كما يقول بارتولد - ألف خطوة من الغرب إلى الشرق، وستمائة من الشمال إلى الجنوب. وتقع على مائة وخمسين قدماً فوق مستوى نهر سيحون^(١٠٨). وعلى كل حال: لم يبق لنا من أخسيكت الإسلامية غير هذا الوصف الذى تركه لنا السمعانى حين قال: «أخسيكت من بلاد فرغانة، كانت من أنزه بلادها وأحسنها، خرج منها جماعة من العلماء قديماً وحديثاً»^(١٠٩).

(٣) أُنْدُكَان: أصبحت عاصمة الإقليم بعد (أخسيكت). ومع الأسف لم تمدنا المصادر الإسلامية بمعلومات عن هذه المدينة سوى أنها كانت تقع على يسار نهر سيحون؛ كما كانت مركزاً تجارياً مهماً^(١١٠).

(١٠٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أخسيكت، م٢، ج٤، ص٤٢٠

(١٠٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٤٢٠، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٣٨.

(١٠٧) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٧١.

(١٠٨) بارتولد: تركستان، ص٢٧٣، ودائرة المعارف الإسلامية، م٢، ج٤، ص٤٢٠.

(١٠٩) السمعانى: الأنساب، ج١، ص٩٥.

(١١٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٤٨٦.

وفى العصر الحديث وقعت المدينة تحت الاحتلال الروسى عام (١٨٧٠م/١٢٨٦هـ) وقام الشعب بالثورة عام (١٨٩٨م/١٢٩٤هـ)، وأخمدت السلطات الروسية الثورة بالشدة والعنف. وفى عام (١٩٠٢م/١٣١٩هـ) تعرضت المدينة لزلازل عظيم دمر جميع المنازل تقريباً. وذهب ضحيته ما يقرب من أربعة آلاف فرد، وأعادت الحكومة الروسية بناء المدينة من جديد، وأنشأت فيه حيّاً روسيّاً. وفى عام (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) استقلت أندكان وصارت جزءاً من جمهورية أوزبكستان، وتعرف حالياً باسم أندجان^(١١١).

(٤) خُجَنْدَة: مدينة عظيمة تقع على الضفة اليسرى لنهر سيحون جنوب فرغانة، تبعد عن سمرقند مسافة عشرة أيام وتعرف بالفارسية [دِلْ مَزَنْدَه] ومعناها بالتركية «المدينة الجميلة»^(١١٢) قال الشاعر فى وصفها:

ولم أرَ بَلَدَـةَ بِإِزاءِ شَرْقٍ ولا غَرْبٍ بِأَنْزَهٍ مِنْ خُجَنْدَه
هِيَ الْغُرَاءُ تُعْجَبُ مِنْ رَأَاهَا وَهِيَ بِالْفَارْسِيَةِ دِلْ مَزَنْدَه^(١١٣)

وكانت خجندة تمتاز بالطول، فطولها أكثر من عرضها، لها قلعة قوية؛ وبها مسجد جامع يقع وسط المدينة، ويتميز أهلها بالجمال والمروءة. يقول المقدسى: «خجندة مدينة نزيهة ليس بهذا الجانب (يعين فرغانة) أطيب منها. وسطها نهر جار»^(١١٤).

(١١١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة أندكان، م ٤، ج ٣٢، ص ٦٠٢.

(١١٢) فاميري: تاريخ بخارى، ص ٤٥.

(١١٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٦.

(١١٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٢٢.

أما تاريخ المدينة في العصر الحديث، فقد وقعت في عام (١٨٦٦م/١٢٨٢هـ) في يد الجيوش الروسية بعد حصار دموى استمر ثمانية أيام قتل فيها ألفان وخمسمائة جندي من الجنود المدافعين عن المدينة. وفي عام (١٩٦١م/١٣٨٠هـ) غير الروس اسم المدينة إلى [لينين آباد]^(١١٥).

(٥) **أَوْزَكَنْد**: آخر مدن فرغانة حيث تقع على حدود الترك، ويمر بها نهران؛ أحدهما: يدعى بتاغر ويأتي من هضبة التبت. والآخر: برسخان، ويحيط بالمدينة سور ضخّم للدفاع عنها ضد الأتراك، ولها قلعة كبيرة، ولها أربعة أبواب^(١١٦).

وتمتاز المدينة كذلك بكثرة البساتين، والمياه الجارية، والأسواق العامرة، ويقول المقدسي: «على بابها نهر يخاض، وليس له جسر...»^(١١٧).

(٦) **أَوْش**: تقع شرق مدينة قُباء - إحدى بلاد فرغانة - وهي [أى أوش]. مدينة عامرة، كثيرة الأنهار التي تسقى أراضيها، لها ثلاثة أبواب هي: باب الجبل، باب الماء، باب مغكذه (ومعناه باب بيت النان)^(١١٨). وهذه الأبواب محصنة وبالقرب من المدينة جبل عليه مراصد لمراقبة تحركات الترك، لذا فأهلها مقاتلون. وبالجملية: «المدينة رحبة، منعمة، جامعها في وسط الأسواق، كثيرة الخير، واسعة المياه»^(١١٩).

(١١٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة خجندة، ١٦، ج٨، ١٢٨، ص ٥٠٤.

(١١٦) الإصطخرى: المسالك والممالك ص ١٨٧، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٢٠.

(١١٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٢.

(١١٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٢٠.

(١١٩) المقدسي: المصدر السابق، نفس الصفحة، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٢٢٤.

خامساً: إقليم أشروسنة^(١٢٠):

يقع هذا الإقليم فى القسم الرابع من الأرض - كما يقول البيرونى^(١٢١) - وهو أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر، يقع إلى الشمال الشرقى من سمرقند، أما حدوده الجغرافية فهى: يحده شمالاً: الشاش وبعض فرغانة، وشماله الغربى: السهوب الواسعة لنهر سيحون. ومن الجنوب: بعض حدود كش والصغانيان وشومان. وجبل البتم الذى يمتد على طول المجرى الأعلى لنهر زرافشان. وهذه الجبال تعد جزءاً من الإقليم. ومن الشرق: بعض فرغانة أيضاً كان يسكن هذا الإقليم قبل الإسلام جماعة من الإيرانيين يحكمهم أمراؤهم الذين يحملون لقب (الأفشين)^(١٢٢) ويشمل هذا الإقليم الكثير من المدن والقرى، وبه الخيرات الوفيرة ويقال: إن به أربعمائة حصن^(١٢٣).

وفيما يلى عرض لأهم مدن الإقليم:

(١) **بُو مُجَكَّتْ أَوْ بُو نَجَكَّتْ**: عاصمة الإقليم. وهى بلدة كبيرة؛ خصبة، عامرة، وفيرة، بناؤها من الطوب اللبن والخشب وتنقسم إلى قسمين هما:

(١٢٠) اختلفت المصادر فى كتابة هذا الاسم. فقد ذكره الإصطخرى (ص١٨٢)، وابن حوقل (ص٤١٣). والمقدسى (ص٢٧٧) وصاحب خريدة العجائب (ص٦٠): أشروسنة. بينما ذكره اليعقوبى (البلدان ص٢٩٤)، وأبى الفدا (تقويم البلدان ص٤٨٥)، وابن الفقيه (المختصر ص٣٢٢)، وصاحب حدود العالم (ص٨٧)، والسمعانى (ج١، ص١٤١)، ودائرة المعارف الإسلامية (٣م، ج٢٠، ص٢٩٦): أسروسنة. أما ياقوت فقد ذكر الاسمين، ج١، ص١٤٥ - ١٦١.

(١٢١) البيرونى: تحديد نهايات الأماكن، مخطوط، ورقة ١٢٤.

(١٢٢) الخوارزمى: مفاتيح العلوم، ص١١٩.

(١٢٣) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٣٣.

(أ) المدينة الداخلة: ويحيط بها سور ضخّم، ولها بابان هما: باب المدينة، والباب الأعلى. وبداخلها القلعة والمسجد والأسواق والسجن، ويجرى بها نهر كبير يسقى البساتين^(١٢٤).

(ب) المدينة الخارجة: فيحيط بها سور ضخّم أيضًا يقدره الإصطخرى بنحو ثلاثة فراسخ^(١٢٥) ولها أربعة أبواب، وهى: باب زامين، باب مرسّمده، باب نوجكت، باب كهلباذ [أو كهلباذ] ويخترق المدينة ستة أنهار مما جعلها فى غاية الخصب، والنزهة. وقد وصل عدد سكانها إلى نحو عشرة آلاف نفس^(١٢٦). أما مدينة بومجكت القديمة، فقد تهدمت، وقامت على أطلالها مدينة «أرايته» الحالية^(١٢٧).

(٢) زامين أو سوسّنده: مدينة تقع على طريق خجندة وفرغانة، يشقها نهر عظيم، وتقع المدينة على جانبيه. هذا وقد خرب النهر مدينة زامين مما اضطر الناس إلى بناء مدينة جديدة هى سوسنده، ونقل الناس الأسواق والمسجد الجامع إليها. ويذكر المقدسى: أن الأهالى قد أقاموا جسورًا صغارًا على هذا النهر الذى يشق مدينتهم، لكى يُسهل لهم العبور^(١٢٨) وعلى كل، فقد تمتعت المدينة الجديدة بالرخاء، وقامت بها البساتين والمزارع، وعاش أهلها فى أمان حتى إن المدينة لم يكن عليها سور خارجى كما يقول بن حوقل^(١٢٩).

(١٢٤) مجهول: حدود العالم، ص ٨٧.

(١٢٥) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٨٣، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٤.

(١٢٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٧.

(١٢٧) بارتولد: تركستان، ص ٢٨٠، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥١٨.

(١٢٨) المقدسى: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٢٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٦٤، على حين يذكر صاحب حدود العالم، ص ٨٦.

أن لها سور حصين.

(٣) سَابَاطُ: مدينة تقع بين زامين وبومجكت في طريق فرغانة إلى الشاش، تبعد عن سمرقند بنحو عشرين فرسخاً على قول السمعاني^(١٣٠). وعن خجندة بنحو عشرة فراسخ على قول ياقوت^(١٣١). ولم تمدنا المصادر الإسلامية بالتفاصيل الكافية عن هذه المدينة سوى قول المقدسي: «وساباط عامرة، جُل أسواقها مُظَلَّلة، مستوف، وبها عين مأوها جار، يحدق بها البساتين، ويجمع الطرق فيها»^(١٣٢).

(٤) دِيَزَك: المدينة الرابعة بالإقليم، تقع في السهل في شمال غرب زامين؛ تمتاز بمياهها الجارية؛ وبساتينها الخصبة كما كانت المدينة مركزاً للمتطوعين من أهل سمرقند. لذا فقد شُيد بها عدد كبير من الرُّباطات والخانات^(١٣٣).

سادساً: إقليم الشاش :

يقع إقليم الشاش غرب إقليم فرغانة؛ على الضفة اليمنى لنهر سيحون. وهو إقليم واسع فمقدار عرضه مسيرة يومين في ثلاثة أيام. وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار الشاش من المساحة. كما يقول ابن حوقل^(١٣٤).

وإقليم الشاش يمتد في أرض سهلة، مستوية، قرى عامرة، أبنيتهم من الطوب اللبن، وعامة دورهم يجري فيها الماء. كلها مستترة بالخضرة، وتنتشر فيها البساتين والمتنزهات أهلها مقاتلون غزاة، وذلك لأن مدينتهم

(١٣٠) السمعاني: الأنساب، جـ، ٣، ص ١٩٣.

(١٣١) ياقوت: معجم البلدان، جـ، ٣، ص ٥.

(١٣٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٧.

(١٣٣) الإصطخرى: المسالك والممالك ص ١٨٣، وصاحب حدود العالم، ص ٨٧ يسميها ديزك.

(١٣٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٦، القزويني: آثار البلاد، ص ٥٣٨.

أكبر ثغر في وجه الترك. وبالجملية: إقليم الشاش من أنزه بلاد ما وراء النهر. كما يقول الإدريسي^(١٣٥).

أما عن تطور المدينة، فإنها كانت تعرف قديماً باسم جج أو جاج. وهو اسم المدينة بالفارسية^(١٣٦). وبعد الفتح الإسلامي لها أطلق عليها الشاش. ثم تعرضت المدينة للغزو والتدمير أكثر من مرة، بداية من الغزو المغولي، ومروراً بغزو محمد خوارزمشاه، ثم غزو تيمور لنك. ومنذ هذا العصر تحرف اسم المدينة من الشاش أو الجاج إلى تاشكنت، ومعناها مدينة الحجر^(١٣٧). ثم حرفه السكان الناطقين بالتركية إلى طشقند الحالية. وفي العصر الحديث وبالتحديد في عام (١٨٦٥م/١٢٨١هـ) تعرضت المدينة للغزو السوفيتي، وفي صباح يوم ٢٧ أكتوبر (١٩٢٤م/١٣٤٢هـ) حصلت المدينة على استقلالها. وأصبحت عاصمة لجمهورية أوزبكستان الاتحادية^(١٣٨).

والآن نعرف ببعض مدن الإقليم:

(١) **بَنَكْت**: عاصمة الإقليم^(١٣٩). وكانت تنقسم - كباقي مدن بلاد ما وراء النهر إلى قسمين: مدينة داخلية، وأخرى خارجية. وأما المدينة الداخلية: فتبلغ مساحتها فرسخ في مثله، ولها ثلاثة أبواب، وهي: باب أبي العباس، باب كش - الذي يصل إلى سمرقند، وباب الجنيد^(١٤٠). وتمتاز المدينة بقلعتها الضخمة التي تحميها من

(١٣٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص ٧٠٣.

(١٣٦) فامبري: تاريخ بخارى، ص ٢٤.

(١٣٧) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٤ - ٥٢٥.

(١٣٨) د. مصطفى رمضان: المسلمون في آسيا الوسطى وإيران، ص ٢٣٥.

(١٣٩) السمعاني: الأنساب، ج١، ص ٤٠٥، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٣٩٤.

(١٤٠) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٦.

خطر الترك، وكان لهذه القلعة بابان، أحدهما: يفضى إلى الداخل،
والآخر: يفضى إلى البستان، وكان المسجد الجامع يقع بالقرب من سور
القلعة؛ أما السوق ففي وسط المدينة.

وأما المدينة الخارجية: فكان يحيط بها سور ضخّم يحميها ويحمي
الناحية كلها. ويمكن أن أقدم وصفاً سريعاً لهذا السور بأنه: كان يحيط
بمدينة الشاش من ناحية الشمال. ويأخذ هيئة نصف دائرة، يصل
ما بين ضفة نهر الترك في الشرق، حتى نهر سيحون في الغرب. وكان
هناك على بُعد فرسخ من هذا السور خندق عميق^(١٤١) يمتد من الجبل
شرقا حتى وادي سيحون غربا. كل هذا لحماية البلاد من خطر الترك
أما عن أبواب المدينة الخارجية فهي سبعة - كما يقول المقدسي وابن
حوقل - مع اختلاف في اللفظ بينهما، وهي كالتالي:

- ١- باب فرغكد (فرغذ عند ابن حوقل).
 - ٢- باب خاسكت (خاسكت عند ابن حوقل).
 - ٣- باب سنديجا (سكنديجاق ابن حوقل).
 - ٤- باب الحديد.
 - ٥- باب بركر دجا (باكر ديجااق عند ابن حوقل).
 - ٦- باب سكر.
 - ٧- باب در ثغرباذ (در نصر باد)^(١٤٢).
- وأخيراً، فإن المدينة كانت خصبة حيث يشقها عدة أنهار تسقى
البساتين والأشجار^(١٤٣).

(١٤١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٧.

(١٤٢) المقدسي: نفس المصدر ونفس الصفحة، ابن حوقل: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٤٣) مجهول: حدود العالم، ص ٨٧.

(٢) تَوْنُكْث: عاصمة إيلاق، وتقع على بُعد ثمانية فراسخ من الشاش^(١٤٤). تبلغ مساحتها نحو نصف مساحة مدينة بنكث السابقة. وتمتاز مدينة تونكث بالخصب، والمياه كانت تخترق أزقتها، وتسقى رساتيقها، وتقوم بعمارتها^(١٤٥). والجدير بالذكر، أن المسافة الواقعة بين الشاش وتونكث كانت مغطاة - بالبساتين والأشجار والخضرة والمراعى. وكانت هذه المناطق من أماكن النزهة لأهل المنطقة.

وأما عن حماية المدينة، فكان لها قلعة ضخمة، ويحيط بها سور كبير للدفاع عنها ضد خطر الترك. ويقع داخل المدينة المسجد الجامع، ودار الإمارة والحبس، وتقام الأسواق في وسطها^(١٤٦).

(٣) أَسْفِيَجَابْ أَوْ أَسْبِيَجَابْ: تقع في شمال الشاش على يمين نهر سيحون^(١٤٧)، وتبعد عنها بنحو مرحلتين على قول اليعقوبي^(١٤٨) والمدينة تقع بالتحديد على نهر أريس - أحد روافد سيحون - وقد بلغت مساحتها نحو الثلث من مدينة بنكث. هذا، وكانت المدينة عامرة، واسعة، على مستوى من الأرض، وبها مقر الحاكم، وأبنيتهم من الطوب اللبن^(١٤٩).
وأما عن حماية المدينة، فإنها كان يحيط بها سور ضخم مقداره فرسخ، ولها أربعة أبواب، وهي:

١- باب نوجكث (نوجكث عند ابن حوقل).

٢- باب فرخان (فرخان عند ابن حوقل).

(١٤٤) السمعاني: الأنساب، ١، ص ٤٩٤، ياقوت: معجم البلدان، ١، ص ٤٥٨.

(١٤٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ١، ص ٧٠٤.

(١٤٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٨.

(١٤٧) السمعاني: الأنساب، ١، ص ١٤٧، ياقوت: معجم البلدان، ١، ص ١٤٧.

(١٤٨) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩٥، ويطلق عليها (أسيشاب).

(١٤٩) مجهول: حدود العالم، ص ٩١.

٣- باب شاكرانة (سراكرائه عند ابن حوقل).

٤- باب بخارى^(١٥٠).

وأما المسجد الجامع، والقلعة، والحبس، والأسواق فكانت تقع داخل المدينة. هذا، وقد تميزت المدينة بأنها كانت ثغراً جليلاً، ودار جهاد للمسلمين ضد الترك، وقام بها ما يقرب من ألف وسبعمائة رباط للمتطوعين في الجهاد. ومنها: رباط النخشبيين - نسبة إلى مدينة نخشب (نسف) - ورباط البخاريين، ورباط السمرقنديين... إلخ. وبفضل جهاد ومرابطة أهل أسفيجاب فقد أسقط الخلفاء عنهم الخراج يقول الإصطخرى: «وليس بما وراء النهر مدينة لا خراج عليها إلا إسيجاب»^(١٥١).

(٤) طراز: مدينة تقع بالقرب من أسفيجاب. وهي ثغور الترك^(١٥٢). قيل في وصفها: «إنها مدينة جلييلة، حصينة، كثيرة البساتين، مشتبكة العمارة، بها نهر كبير. وهي كذلك: طيبة التربة، لطيفة الهواء، وأهلها مشهورون بالجمال»^(١٥٣). وكان للمدينة أربعة أبواب - لم تذكر المصادر أسماءها - ويحيط بها خندق عميق. أما المسجد الجامع فإنه كان يقع وسط الأسواق^(١٥٤).

(٥) فاراب أو باراب: مدينة صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر سيحون، مقدارها في الطول والعرض أقل من مرحلة^(١٥٥). أرضها سبخة،

(١٥٠) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٣، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٨.

(١٥١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٨٧.

(١٥٢) السمعاني: الأنساب، ج ٤، ص ٥٥. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٥٥.

(١٥٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٧٠٥.

(١٥٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٤.

(١٥٥) السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ٢٥١، و ج ٤، ص ٣٣١، ياقوت الحموي: معجم

البلدان، ج ١، ص ٢٥٤، و ج ٣، ص ٤٠٦.

ذات غياض، ولها حسن عظيم يقع فيه المسجد الجامع. وبسبب موقع المدينة على حدود الترك فقد اشتهر أهلها بالجهاد، حيث كان يخرج منها نحو سبعين ألف رجل - على قول المقدسي - للجهاد في سبيل الله تعالى^(١٥٦).



(١٥٦) المقدسي: المصدر السابق، ص ٢٧٣.

المبحث الثاني: الأنهار الرئيسية في بلاد ما وراء النهر

تمتعت بلاد ما وراء النهر بكثرة أنهارها - وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في فصل الرى والزراعة - أما الآن فنركز على النهرين الرئيسيين وهما نهرا جيحون، وسيحون.

(أ) نهر جِيحُون:

كان نهر جيحون - قديماً - يُعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية، والأقوام الناطقة بالتركية. أو بمعنى آخر بين إيران وتوران^(١٥٧). فما كان في شماله من أقاليم سماها العرب: ما وراء النهر، أو الهياطلة^(١٥٨). هذا، وقد أطلق العرب على نهر أوكُس oxus اسم جيحون أو نهر بلخ^(١٥٩). وذلك لأن العرب قد سموا الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التي تقع عليها، أو تقع قريبة منه، وإذا كانت بلخ تقع على بُعد بضعة أميال من ضفتة جيحون الجنوبية، إلا إنها أكبر المدن القريبة منه. ومن ثم أطلق المسلمون على نهر أوكس، جيحون، أو نهر بلخ.

والسؤال الآن: كيف تغير اسم نهر جيحون قديماً إلى أُمُو دِرْبَا حديثاً؟ عرف نهر جيحون - كما سبقت الإشارة - باسم نهر أوكس وهو محرف من الصيغة الإيرانية وخشو أو فخشو. وبعد الغارة المغولية على

(١٥٧) توران: كلمة إيرانية تطلق على البلاد التي تقع إلى الشمال الشرقي من إيران ونتيجة الهجرات الآسيوية، أصبح لفظ (توره) يطلق على الأعداء الإيرانيين وهم الطخاريون، والهياطلة والترك. دائرة المعارف الإسلامية، مادة توران، م ١٠، ص ١٢٣.

(١٥٨) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٧٨.

(١٥٩) المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٩٤، ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠١.

هذه البلاد كاد أن يبطل استعمال اسم جيحون. وأطلقوا عليه آمو - ومعناها بالتركية النهر - وذلك نسبة إلى أكبر المدن الواقعة عليه وهي مدينة آمو، والتي سماها المسلمون آمل - مسقط رأس الإمام ابن جرير الطبري (ت ٥٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) - والتي عرفت فيما بعد باسم آموية^(١٦٠)، وتعرف حالياً باسم جارجوى.

أما عن منابع نهر جيحون: فقد ذكر ابن رسته - أن نهر جيحون ينبع من هضبة التبت الصغرى - باميرا حالياً - ثم ينحدر نحو المشرق^(١٦١). وقد ذكر كل من الإصطخرى، وابن حوقل روافد نهر جيحون، وهي^(١٦٢) كالتالى:

نهر جَرِيَاب وهو عمود النهر - ينبج حالياً - وكان يصل إلى بذخشان من الشرق، ثم يتجه غرباً فجنوباً قبل أن يبلغ أطراف مدينة خُلم. وكان لهذا النهر روافد كثيرة منها: أُنْدِيجَارَاغ - برتنك حالياً - ونهر فَاَرْغَر، ونهر أَخْشَوَا. ومن اليسار عند مدينة آرهن يصب فى نهر جيحون نهر وخشاب أو نهر الوخش - ويعرف حالياً بسرخاب ومعناه النهر الأحمر - وبعد انعطافه حول مدينة بذخشان يستقبل فى يساره نهري الطايقان وقندز الآتيين من طخارستان - وهما عند بن رسته ختلاب وتراب - ثم يلتقى نهرا القباذيان والصغانيان - عند ابن رسته زامل - بجيحون فى ضفته الشمالية. وتفصل جبال البتم - فى الشمال - مياه نهر جيحون عن مياه نهر زرافشان التى فى الصغد^(١٦٣) ثم ينحدر النهر نحو الغرب، ثم الشمال الغربى حتى يصب فى بحر خوارزم - آرال حالياً^(١٦٤).

(١٦٠) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جيحون، ١٣م، ص ١٠٠.

(١٦١) ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص ٩١-٩٣.

(١٦٢) الإصطخرى: المسالك والممالك ص ١٦٦، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٩٣.

(١٦٣) مجهول: حدود العالم، ص ٣٦-٣٧. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٧٩.

(١٦٤) هي: بحيرة كبيرة فى غرب تركستان مالحة نوعاً ما، بلغت مساحتها عام ١٩٤٢م

(٢٦٠، ٥٤٨ كم^٢). منها (٢٠٢، ٣٤٥ كم^٢) جزائر، انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة بحيرة خوارزم، ١م، ص ٤٢.

ومما هو جدير بالذكر، أن نهر جيحون كان يتجمد في فصل الشتاء حتى كانت القوافل تعبر عليه ماشية. وربما بلغت طبقة الجليد نحو خمسة أشبار - كما يقول ياقوت الحموي، الذي زار هذه المناطق^(١٦٥). ولدينا شاهد آخر وهو الرحالة ابن فضلان، والذي ذكر في رحلته أنه أقام بالجرجانية - عاصمة خوارزم - من شدة البرد - شهور رجب وشعبان ورمضان وشوال، وساق لنا قصة ملخصها: أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض، وأنهما باتا من غير إشعال نار، فأصبحا والجمال موتى من شدة البرد^(١٦٦). ويحدثنا القزويني: أن أهل خوارزم كانوا يحفرون آباراً بالمعاول في نهر جيحون يخرقوه للوصول إلى المياه. ويسقون منها، ثم يحملونه في جرار^(١٦٧). كان الوضع يظل هكذا حتى ينقضى فصل الشتاء، فيتقطع الجليد، ويعود النهر إلى جريانه.

(ب) نهر سِيحُون:

أطلق العرب على نهر جَكَزَرْتَس Jaxar Tes اسم سيحون، أو نهر الشاش - طشقند حالياً - نسبة إلى أكبر المدن الواقعة عليه وهي مدينة الشاش.

وأما عن تطور اسم النهر، فبعد الغارة المغولية على هذه البلاد كاد أن يبطل استعمال هذه الاسم، لأنهم أطلقوا عليه اسم كل زريان، ثم تحرف إلى الاسم التركي سيرصو بمعنى نهر سير^(١٦٨)، ومن ثم عرف باسم سِير دَرِيَا حالياً.

(١٦٥) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ٢٧٩.

(١٦٦) ابن فضلان: الرحلة إلى بلاد الترك، ص ٨٤ - ٨٥.

(١٦٧) القزويني: آثار البلاد، ص ٥٢٦.

(١٦٨) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥١٩.

وأما منابعه فقد ذكر ابن حوقل أن النهر يخرج من بلاد الترك، حيث تجتمع إليه عدة أنهار تأتي إليه من الجبال، ثم يدخل وادى فرغانة ويصير بها نحوًا من مائتى ميل، ثم ينحدر شرقًا ليستقبل أنهار: خرشاب، وأورست، وقبا، وجدغل - نرين حاليًا - وأنهار أخرى غيرها. ثم ينعطف شمالاً، فيستقبل نهري إيلاق، وترك من يمينه، ثم يمر بغرب الشاش، ثم أسفيجاب ثم تتوزع مياهه على أنهار عديدة حتى يصب فى بحر خوارزم^(١٦٩) - آرال حاليًا - فى القسم الشمال الشرقى منه.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن نهر سيحون كان يتجمد - هو الآخر - فى فصل الشتاء، ولكن لمدة أطول من نهر جيحون، حيث كانت القوافل تعبره، وكان يُعد «نحو ثلثى جيحون»^(١٧٠) على قول ياقوت الحموى. هذا، فى عُدالة سريعة الأنهار الرئيسة ببلاد ما وراء النهر، وهناك أنهار أخرى - فرعية - تغطى جميع البلاد. وفى الختام، فقد أجمع الرحالة الذين دخلوا بلاد ما وراء النهر على أن: «مياههم أعذب المياه، وأخفها. وقد عمت المياه العذبة جبالها، وضواحيها ومدنها». مما ساعد بلاد ما وراء النهر على أن صارت «من أخصب أقاليم الإسلام، وأنزهها، وأكثرها خيرًا، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير»^(١٧١).



(١٦٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤١٩، لسترنج: نفس المرجع، ص ٥٢١.
 (١٧٠) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٠٢، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٤٥.
 (١٧١) الإصطخرى: المسالك والممالك، ص ١٦١.